الدور السياسي والثقافي لبنو عمار في إمارة طرابلس "٤٥٧-٥٠٢هـ – ١٠٦٥/١١٠٩م"

د. عاصم إسماعيل كنعان د.نعمة شهاب جمعة
جامعة ديالى/كلية التربية

طرابلس مدينة فينيقية الانشاء أسسها الفينيقيون على أمتداد الساحل الشرقي للبحر المتوسط[١] . كانت المدن الفينيقية في العصر الفارسي ٤٠٠- ٣٣٠ق.م تتمتع بحرية كبيرة وبخاصة في المجال التجاري مع نوع من الاستقلال الجزئي[٢] ولكنها لم تأخذ الدور نفسه في الحقبة الرومانية ٦٢ق.م – ٣٠٦م ولم تظفر بالمنزلة السامية التي ظفرت بها عدد من مدن الساحل الشامي مثل بيروت التي كان قد سكَ فيها الاغريق النقود[٣] .ولكن لايمنع ذلك التجاهل من لدن السلطات الرومانية من ان تأخذ طرابلس مركزاً ثقافياً بارزاً مثلها مثل بقية المدن الساحلية في منطقة بلاد الشام [٤]. فضلاً عن ذلك فقد أخذ الرومان فيما بعد الاعتناء بطرابلس بشكل كبير من خلال اهتمامهم بتجميلها عن طريق ابنيتها وبناء معابد كثيرة فيها [٥].

وفي العهد الاسلامي أصبحت طرابلس قاعدة بحرية ودار لصناعة السفن وبخاصة في الحقبة الاموية [٦]. نتيجة للحاجة الكبيرة التي فرضت عليها بسبب حروبها الخارجية اذكان لابد لها من وضع أسطول بحري قوي يسهم في اكمال القوة البحرية فضلاً عن وجود أخشاب الارز اللبناني اذ ظلت طرابلس منذ أن أسترجعها المسلمون قاعدة بحرية وتجارية مهمة[٧]. .

ففي عهد عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ) /٦٨٥-٧٠٥م بعدان قام بالعديد من الاعمال الحربية انطلاقاً من سواحل الشام ،وبخاصة قاعدته البحرية في طرابلس أنصرف فيما بعد لتحصين السواحل وتقوية ألمدن عن طريق زيادة سكانها ، فقام ببناء حصن طرابلس من جديد وتحصينه ، وشملت عنايته حصون كل من صور ، وعكا ،وقيسارية ، وعسقلان، وكان قد جدد مدينة طرابلس وحصنها واسكنها المسلمون فصارت آمنة عامرة مطمئنةووضع لها نظاماًحربياً خاصاً فكان يرسل اليها جنداً من دمشق فيرابطون فيها خلال الصيف ، أما في الشتاء فكان يوجه اليها جنداًمن بعلبك [٨].

بقيت طرابلس خلال هذه الحقبة تابعة لدمشق ، فقد أعطى لها الامويون كثيراً من الاهتمام بتحصينها وترميمها وتجميلها لتكون المدينة الجميلة المحصنة فضلاً عن جعلها

قاعدة أنطلاق لمواجهة الخطر البيزنطي وبخاصة خلال فترة حكم الخليفة الوليد عبد الملك (٨٦-٩٦هـ)/٧٠٥-٧١٥م (٩).

وعند قيام الدولة العباسية ، ظلت طرابلس تابعة لولاية دمشق وكل ماطرأ عليها من تغيير أن دمشق لم تعد عاصمة الخلافة ، وانما كان يتولى شؤونها عامل من قبل الخليفة العباسي، فقد كان من جملة أختصاصاته الاشراف على سواحل دمشق ومنها طرابلس [١٠].

ولايعني ذلك أهمال العباسيين لها بل آعطت الخلافة العباسية متمثلاً بخلفائها كثير من الاهتمام بطرابلس . فأبو جعفر المنصور ١٣٦-١٥٨هـ/ ٧٥٤-٧٧٥م، قد قام بتتبع حصون السواحل ومدنهافعمرها وحصنها وبنى ماأحتاج الى البناء منها ، وخاصة مدينتي اللاذقية وطرابلس اللتين تعرضتا لغزو الاسطول البيزنطي وذلك عام ١٤١هـ/٧٥٩م [١٢].

دولة بني عمارودورها السياسي في طرابلس

ينحدر بنو عمار في الاصل من قبيلة كتامة المغربية الافريقية . وقد أعتنقت هذه القبيلة المذهب الشيعي ، الذي أنتشر في بلاد المغرب العربي ، وعندما قامت الدولة الفاطمية تولى شيوخ هذه القبيلة مراكز قيادية في مصر والشام ، فكان منهم : أمين الدولة ابو محمد الحسن بن عمار بن ابي الحسين[١٣] ، الذي ورد أسمه أول مرة في حوادث سنة ٣٥١هـ/٩٦٢م في أثناء حصار المسلمين لقلعة طبرمين في جزيرة صقلية اذ كان يقود جيش المعز لدين الله الفاطمي وحاصررمطة في الجزيرة [١٤].

وظهر على نحو بارز على مسرح الاحداث في عهد الخليفة العزيز بالله فكان من أجل كتابه[١٥] ، وهوكبير كتامة وشيخها وسيدها[١٦]،ويلقب بأمين الدولة ،وهو اول من لقب في دولة المغاربة[١٧] . ولما أفضت الخلافة الى الحاكم بأمر الله رد الامور أليه والتدبير في سنة ٣٨٦هـ /٩٩٦م ز وقال له أنت أميني علي دولتي ولقبه وكناه ، وكان الناس على اختلاف طبقاتهم يترجلون له[١٨] . وهو الذي فتح الطريق لابناء قبيلته لينتقلوا الى الشام حيث أرسل القائد ابو تميم سليمان بن جعفر بن فلاح الكتامي الى دمشق ، فقام ابو تميم هذا بوضع أخيه علي بن جعفرواليآعلى طرابلس سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م [١٩].

غير ان المصادر التاريخية التي بين أيدينا تصمت عن تاريخ وكيفية مجيء بني عمارالى طرابلس أول مرة ، اذ تنقطع أخبار هذه الاسرة بعد قتل جدها الحسن بن عمار سنة ٣٩٠هـ /١٠٠٠م[٢٠] فلا نقف علىاخبارها الابعد الربع الاول من القرن الخامس الهجري ، حيث نطالع أسم أحد أفراد هذه الاسرة هو الامير الوزيررئيس الرؤساء خطير الملك ابو الحسن عمار بن محمد وكان يتولى ديوان الانشاء في مصر ، وقتل في سنة٤١٢هـ /١٠٢٢م[٢١] .

ثم نطالع ذكراً لاثنين من أسرة بني عمار في طرابلس ، هما: احمد بن محمد عمار ألمعروف بابي الكتائب ،وعبد الله بن محمد بن عمار ألمعروف بالقاضي الجليل ابي طالب[٢٢].

كان من الطبيعي في الدولة الفاطمية أن يكون للقاضي صلاحيات اوسع من صلاحيات الوالي أو قائد الجيش ، اذ كان القاضي بمثابة الداعية الى نشر المذهب الشيعي الذي يقوم على اساسه الدولة الفاطمية ن وكان في كثير من الاحيان قائد للجيش الفاطمي(٢٣) .

وفي الوقت الذي بدأ سلطان الفاطميين على الشام يتخلخل ، ويضعف بظهور السلاجقة قوة لها مطامعها وبخاصة في منطقة بلاد الشام ، شجعت هذه العوامل قاضي طرابلس ابو طالب الحسن بن عمار الذي كان في مراقبة دائمة لهذه الاحداث للافادة من هذه الاضطرابات ليحفظ لطرابلس استقلالها بين هذه الاهواء(٢٤) .

فقدذكرت المصادر التاريخية ان أمين الدولة بدأ يحكم طرابلس عقيب سنة٤٥٧هـ/١٠٦٦م،بشيء من الاستقلال الذاتي ، ونستدل على ذلك من توسطه بينالخليفة المستنصر بالله الفاطمي ٤٢٧-٤٨٧هـ/١٠٣٥-١٠٩٤م وبين محمود بن نصر صاحب حلب المعروف بابن الروقلية في سنة ٤٥٩هـ / ١٠٦٨م ونجاح وساطته بينهما (٢٥)،ولو لم يكن أمين الدولة يتمتع بشخصية مرموقة ، وباستقلال ذاتي في الحكم ، لماأتيح له ان يقوم بمهمة الوسيط بين الخصمين.

يعدأستقلال بني عمار بطرابلس ٤٥٧هـ /١٠٦٥مرحلة مهمة في حياة هذه المدينة لما أشتهرت به هذه القبيلة بالعفة ، والشجاعة وحبهم للمعرفة وحرصهم على الوحدة بين ابناء المجتمع . فقد أستطاعوا من تكوين دولة تمتد من تخوم بيروت من جهة وحتى أرباض انطاكية ومن ناحية جبلة في سورية الى قلعة صافتيا وحصن الاكراد والبقيعة في لبنان حتى الهرمل والخنية وجبة بشرى وبلاد العاقورة شرقي بلاد جبيلة (٢٦). إذ قام امين الدولة في هذه الاثناء باسقاط الخطبة للمستنصر بالله الفاطمي من منابرطرابلس واستبد أمين الدولة بامر طرابلس،وخلع طاعة أمير الجيش ، وتغلب على مدينة جبيل وضمها الى نفوذه ، ووضع بذلك النواة الاولى لقيام أمارة بني عمار المستقلة (٢٧) . ثم أعقب ذلك التقرب من السلاجقة الاتراك لتدعيم موقفه في طرابلس ، ولذا نرى السلطان السلجوقي الب أرسلان يسير وهو عند حلب في سنة ٤٦٣هـ/١٠٧١م، بعض عساكره مع أحد كتّابه الى طرابلس لتقريرامرها (٢٨).

وقد تخلف عن الب ارسلان بعد رحيله عن حلب جماعة كبيرة من التركمان الذين ((عرفوا بـ الناوكية)) فنزلوا الشام ،واقام قسم منهم عند طرابلس(٢٩) .ولربما كان ذلك نتيجة أتفاق بين أمين الدولة والسلاجقة ،وعندما تعرض محمود بن نصر للخطر البيزنطي أرسل يستنجد بهم ، فهبوا لنجدته بقيادة مقدمهم ((قرلو))(٣٠) واستطاع بمساعدتهم صد البيزنطين عن حلب (٣١) .

وفي الاثناء هذه لجأ الى طرابلس الامير سديد الملك علي بن المقلد بن منقذ هارباًمن محمود بن نصر ، واقام عند صاحبها أمين الدولة ابن عمار ، فعرض محمود على أمين الدولة ثلاثة آلاف درهم ورقية من أجل القبض على ابن منقذ فلم يظفر به[٣٢].

ووسط هذه الاجواء الشديدة التي كانت تعصف ببلاد الشام ، كان أمين الدولة يضع الخطوط العريضة لقيام أمارة طرابلس المستقلة بسياستها الحيادية بين الدولة الفاطمية والدولة السلجوقية ، واستطاع ان يحافظ على حكم طرابلس على الرغم من أنفصاله عن الفاطميين وتعرضه لاطماع صاحب حلب ، ومع ذلك لم يمنع أصدار النقود التي كانت تضرب بطرابلس ، وهي تحمل أسم الخليفة الفاطمي ألمستنصر بالله ، واستطاع أن يحمي طرابلس من الغزو الناوكية التركماني ، حتى توفي شهر رجب من عام ٤٦٤هـ/ ١٠٧٢م[٣٣] .

ثم أنتقل الحكم بعدهالى جلال الملك ٤٦٤هـ- ٤٩٢هـ/ ١٠٧٢ – ١٠٩٨م [٣٤] حيث سار على نهج السياسة التي أختطها عمه أمين الدولة في حكم طرابلس ومحافظته على الحياد بين الدولتين الفاطمية والسلجوقية حيث تمكن من تدعيم مركزه وحفظه خلال الثلاثين عاماً التي قضاها في حكم طرابلس ، وتدل الاحداث التي وقعت في عصره على أنه كان على جانب كبير من الحنكة والدهاء السياسي فضلاً عن براعته في تصريف أمور الدولة والحفاظ على مركزه بين المتنافسين على تزعم العالم الاسلامي . فقدت أمارته خلال مدة حكمه محط أنظار الفاطميين الذين فقدوا معظم أملاكهم في الشام[٣٥] .اذ أظهر ميلاً واضحاً الى الحكم الفاطمي وهذا ما نراه واضحاً في سياسته عندما التجأ اليه الامير حصين الدولة هرباً من الفاطميين
اذ قام بتسليمه لهم فقتلوه ضرباً بالنعال[٣٦] . وان كنا لانستسيغ الموقف كونه مخالف لقيم العرب، الاأن المسألة متعلقة بسيادة طرابلس في الحفاظ على استقلالها حتى ولوان الامرقد يكون منافياً للقيم العربية الاصيلة .

كان بنو عمار قضاة طرابلس ثم أصبحوا أمراءها [٣٧] وقد نمت أمارتهم نمواً عظيماً حتى أصبحت طرابلس في القرن السادس الهجري/ الحادي عشر الميلادي تنافس بغداد والقاهرة ومن أعظم أمارات حوض البحر المتوسط حيث كانت أساطيلها تنتقل في انحاء هذه المنطقة[٣٨] .فهي المنفذ البحري الرئيس لبلاد الشام عن طريقه يتم التصدير والاستيراد ، وتنقل منتجات الشام والمشرق الى أوربا واليه تفد من الخارج لتحول منه الى سائر بلاد الـــشام والمنطقة العربية [٣٩] .

وظلت طرابلس ومعها دمشق توردان اوربا حتى أواخر العصور الوسطى بالسكر بجميع أشكاله المعروفة وكان التاجر الاوربي القادم من البندقية ، أو جنوا يعود الى بلاده وهو يحمل سلال السكر واكياسه من طرابلس [٤٠].

حظيت الحياة العامة في طرابلس أبان حكم القاضي جلال الملك برعاية خاصة في معظم مناحي المجتمع . ففي الجانب الزراعي أولوا هذا الجانب أهتماماً كبيراً من خلال توفير سبل الارتقاء به ليكون بمستوى المسؤولية في الاعتماد عليه بتوفير المواد الغذائية لمواجهة الضغوط والتهديدات الخارجية حيث قام جلال الملك بكَري العديد من الانهر وأقامة القرى وتجديد القناطر فضلاًعن الدعم المادي الذي كان يقدمه الفلاحين [٤١].وجمع بنو عمار زراعة قصب السكر الذي كان ينمو بغزارة على نهر ابي علي في بساتين طرابلس [٤٢] .فأقام الطرابلسيون المصانع داخل المدينة لعصره وتجفيفه وتصنيعه على نحو رقائق او على نحو حلوى [٤٣].وكان من نتيجة ذلك أزدهار المدينة حتى خلال الحصار الصليبي لها براً وبحراً
اذ ظلت صامدة تقاتلهم عشر سنين مستعينة بثروتها وحسن أدارة أقتصادها[٤٤] .

فقد ذكرت المصادر التاريخية أن القائد الصليبي ريموند الصنجيلي وفي مدة حصاره لطرابلس أوفد وفداً لمفاوضة فخر الملك في طرابلس ومر هذا الوفد بأسواق طرابلس فأدهش بما رآه من تنوع البضائع ورواج التجارة وسعة الثروة [٤٥]،والرخاء الذي تنعم به المدينة ومما يؤكد هذا الرخاء الاقتصادي ان دفع فخرالملك ابن عمار في أثناء الحصار الصليبي الى جميع المدافعين عن المدينة من الاجناد براً و بحراً رواتب ستة أشهر مقدماً . فضلاً عن أسهام أثرياء المدينة بأموالهم في مقاومة الحصار الاقتصادي الذي فرضه الصليبيون على المدينة [٤٧].

دولة بني عمار ودورها الثقافي في طرابلس

أما في الجانب الثقافي فكانت له رعاية خاصة تمثلت باهتمام خاص من قبل أسرة بني عمار . فقد عني جلال الدولة بدارالعلم عناية فائقة وجعل لطلاب العلم رواتب وفرق على أهلها ذهباً وجعل لها نظاراً يتولون القيام بذلك ، وكان شعراء الشام يفدون لمدح أمراء بني عماروبتقبلون جوائزهم فيلقون الترحيب والتكريم ، وكثرت حلقات التدريس وأزدحمت ألمدينة بأشهرألاعلام من أدباء وفقهاء وشعراء ، ولغويين ، من الذين يفدون اليها من كل مكان ، وقصدها الناس على أختلاف أجناسهم وأديانهم ، ومذاهبهم . وكان يفد اليها التجار والرحالة وطلبة العلم والعلماء من كل البلاد[٤٩] .

فضلاً عن أزدهارها في ترجمة العلوم والآداب عن اللاتينية ، والفارسية وغيرها الى العربية وسنها الى اللغات الاخرى .ولدينا شهادة بذلك من المستشرق (دي لاس اوليري) في كتابة (علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب)[٥٠] .وسادت في ذلك كبريات الحواضر ، فكثر فيها المترجمون ،والنساخون ، والكُتاب ، والخطاطون ، يقول ستيفن رنسمان عن المكتبة : (انها أصبحت أروع مكتبة في العالم) . فعند سقوط طليطلة في الاندلس في أيدي القشتالين سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م [٥٢] هاجر فريق من

علمائها الى طرابلس ، وكان منهم : احمد بن محمد ابو عبد الله الطليطلي ، فاحتضنه بنو عمار وجعلوه متولياًلدار العلم اذ كانوا يختارون للنظرفي أمورها كبار رجال العلم من أمثال الحسين بن بشر بن علي بن بشر ، وأسعد بن ابي روحو ، وغيرهما من أمثالهما[٥٣] .

وكان في المكتبة مئة وثمانون ناسخاً عملهم الوحيد نسخ الكتب غير الموجودا منها نسخ أضافتها الى المكتبة . ولم يقتصر الامر على الكتب العربية بل ضمت المكتبة كثيراً من كتب اليونان ، والرومان ، والفرس ، وبين الكتب العربية عددكبير منها بخطوط مؤلفيها . ومكتبة كهذه تحتاج الى الانفاق الكثير عليها لما تضمه من عاملين ومشرفين ، ونساخين وخطاطين ، ومترجمين ، ومجلدين ، ووراقين ،وباعة يحملون اليها نوادر الكتب مهما غلا ثمنها ،اما عددالكتب التي أحتوتها مكتبة بني عمار فقد تقدمت الاقوال في شأنها[٥٤] .

ويبدوان المكتبة بدأت في عهدها الاول بمئة الف كتاب ، وان هذاالعددأرتفع في عهد جلال الملك الى المليون ، ثم أرتفع في عهد فخر الملك الى ثلاثة ملايين مجلد[٥٥] .

فضلاً عن قرب طرابلس من دمشق آدى الى أزدهار اكبرللثقافة الطرابلسية . اذ كان ينتقل اليها في كل عام العديد من الزائرين من دمشق اليها ليشاركون في تطوير الحياة العلمية.فقد ذكرفي المصادرالتاريخية ان ابن الخوارزمي عندماحاصر دمشق في عام٤٦٨هـ/١٠٧٥م[٥٦] واعتقل العديد من الناس ، فضلاً عن أرتفاع المعيشة قامت هجرة جماعية الى طرابلس[٥٧] .

ان من ابرز عوامل نقل كتب الحضارة الى اوربا الاتصالات التجارية التي كانت تجوب قوافلها بين الشرق والغرب وقد كان لطرابلس بني عمار أثر مهم فيها ، اذ كانت تفد القوافل التجارية الذي أعدوه أحسن أعداد ،ناقلاً منها مظاهر الحضارة الاسلامية[٥٨] .

قال ناصر خسرو عن طرابلس : ((... وللسلطان بها سفن تسافر الى بلاد الروم ، وصقلية ، والمغرب للتجارة))[٥٩] .

لم تكتف طرابلس بعملية الحصول فقط عن المعرفة وزيادة كتب المكتبة بل تطورت الحال ان جعل هناك العديد من حلقات الدرس ،فمن بين أهم هذه الحلقات نجد حلقة ابىعبد الله الطليطلي حيث كانت حلقته قد خرّجت العديد من الادباء ، والشعراء ، واللغويين ، والنحويين، ومنها تخرج الشاعر أسامة بن منقذ ، وابن الخياط [٦٠].

وعدا هذهِ الحلقات العلمية فقد كانت هناك لقاءات شعبية تقوم احياناً في حوانيت صفار الباعة وكبارهم منهاحلقة العطار ابي المفضل، ولقاءات الاسواق وينابيع المياه خارج طرابلس مايتطارح الملتقون الاشعار [٦١].

وبارز هؤلاء الشعراء ابن خياط الذي هاجر من دمشق الى طرابلس وهو مايؤكد شهرة طرابلس في أحتضان الشعراء والادباء ، اذ كانت دمشق تعاني في هذه المرحلة وبخاصة سنة ١٠٧١/ - ١٠٧٦ م ألفتن والجوع والفاقة بسبب الهجمات المتكررة من السلاجقة عليها وحصارأتز السلجوقي للمدينة [٦٢].

فضلاًعن ذلك فقد زارطرابلس ابو العلاء المعري، وقد شك ابن العديم بذلك وتابعه أخرون ، قال ابن العديم ((...وقد ذكربعض المصنفين ان ابا العلاء المعري رحل الى دارالعلم بطرابلس للنظرفي كتبها ،وأشتبه عليه ذلك بدار العلم ببغداد . ولم يكن بطرابلس دار علم في ايام ابي العلاء، وانما جدد دار العلم بها القاضي جلال الملك بن عمار في اثنتين وأربعين واربعمائة)).على انه يمكننا الرد على تلك القضية من خلال قولنا أن التجدد عند أهل العربية آعادة شيء عتيق الى حاله حسنة فليس هو بتأسيس ولابناء ، ولو كان هذا العالم الكبير متثبتاًفي قوله لقال : ((وانما أنشىء دار العلم))، او ((انما أسس دار العلم)) ،فهو محجوج مفلوج على دعواه بذكره التجديد دون التأسيس والانشاء وبذلك تسقط دعوى من أتكر دراسة ابي العلاءالمعري بدار العلم في طرابلس لان التجديد يدل على ان دار العلم كانت منشأة قبل ذلك فأصابها تلف او حريق أستوجب تجديدها .

ولم تعمل هذه الاسرة الجانب الامني فقد كانت ترصد تحركات الحملات الصليبية وتنادي دوماً بضرورة ان يكون هناك أعداد مؤهل للوقوف أمام تطلعات القوات الصليبية الغازية . فعند وصول القائد الصليبي صنجيل الى مشارف الشام أدرك فخر الملك ابن عمار الخطر الصليبي ، فصمم على الوقوف بوجه هذا التغلغل وذلك بالدعوة الى حلف أسلامي يقف في وجهه ، فراسل الامير ياغي في حمص ، والملك دقاق بن تتنش في دمشق، ليقول لهما على مايروى ابن الاثير : ((من الصواب ان يعاجل صنجيل ، اذ هو في هذه العدة القليلة)) [٦٦] ، فاستجابا له .

فخرج الامير ياغي بنفسه وسير دقاق الفي مقاتل وخرجت الامرادات الطرابلسية فاجتمعوا على باب طرابلس وصادفوا صنجيل هناك . يقول ابن الاثير : ((فأما عسكر حمص فانهم أنكسروا عند المشاهدة وولوا منهزمين ، وتبعهم عسكر دمشق ، وحمل صنجيل بمن معه فكسروا أهل طرابلس وقتلوا منهم سبعة آلاف رجل ، ونازل صنجيل طرابلس وحاصرها الى هنا))[٦٧] .

كل هذا كان امراً طبيعياً فالحرب سجال يوماً لنا ويوماً علينا ، ولكن من غير الطبيعي والمعقول الذي يجعلنا نكثر من التساؤل والاستغراب هي المقدمة التي قام بها ابن الاثير لهذه الحرب وهزائمها ، فهو يقول عن أحداث سنة ٤٩٥هـ/١١٠٢م بعدان يتحدث عن هزيمة صنجيل أمام قلج أرسلان ، ومضي صنجيل مهزوماً في ثلاثمائة فوصل الى الشام فارسل فخر الملك بن عمار الى الامير ياغى والى الملك دقاق ... الى أخر القول الذي سبق ... ثم يقول فاخرج صنجيل مئة من عسكره الى أهل

طرابلس ، ومئة الى عسكردمشق، وخمسين الى عسكر حمص ، وبقي هو في خمسين . فأما عسكر حمص فانهم أنكسروا عند المشاهدة وولوا منهزمين وتبعهم عسكر دمشق . واما أهل طرابلس فانهم قاتلوا المئة الذين قاتلوهم ، فلما شاهد ذلك صنجيل حمل في المئتين الباقيتين فكسروا أهل طرابلس وقتلوا منهم سبعة ألاف رجل ونازل طرابلس وحاصرها(٦٨) .

يبدو لي ان في كلام ابن الاثير هذا خلطاًلانعرف عوامله ، والذي يهمنا الأن هو ان حصار الصليبين لطرابلس براًوبحراً قد بدأ وأستمر زهاء عشر سنوات أصبح خلالها شعار بني عمار السيف،بعد أن كان شعارهم الكُتاب وان ظل للكُتاب عندهم منزلة هامة .

بعد وفاة جلال الملك ٤٦٤- ٤٩٢هـ . تولى حكم طرابلس أخوه ابو علي عمار بن محمد بن عمار الملقب بفخر الملك وكان سيء الحظ اذ تسلم القيادة في الوقت الذي كانت فيه الاحداث تتطور على نحو خطر اثر الغزو الصليبي الذي بدأ يجتاح بلاد الشام منذ سنة ٤٩١هـ،وقد أشاد به الحافظ الذهبي (٦٩) فقال : ((كان من دهاة الرجال وافراد الزمان شجاعة و أقداماًورأياً وحزماً)). ويقول ابن الفوطي(٧٠) : ((فخر الملك ... ملك الساحل . كان من اعيان الملوك ، وكان غزير المروءة عالي الهمة ... ابتلى بلده بحصارالفرنج بحدود العشرة اعوام وهو يقاومهم ... ويراسل ملوك الاطراف ويتحفهم بالهديا وهم حائرون في أنفسهم ولم ينجده احد ، وقد راسل صاحب الروم مرات . وكان حسن التدبير في الحصار، جيد المكيدة والمخادعة ، براً وبحراً ، شتاءاً وصيفاً حتى تفانت رجاله وكلت ابطاله)). وقد استطاع فخر الملك ان يعيد توسيع رقعة أمارة طرابلس الى سابق عهدها فاشتملت على جبلة، وانطرطوس ،وعرقة ، وطرابلس ، وجبيل ، وجونيتة ، حين أستعاد جبلة في سنة ٤٩٤هـ ، بعد أن أستعاد قبلها مدينتي عرقة ، وجبيل ، وكانت جبلة بعد موت أخيه ماتزال بيد صليحة حتى جاءها الصليبيون في سنة ٤٩٢هـ ، فحاصرها(٧١) .

وهكذا أجتمعت عوامل أقتصادية من تجارة ، وزراعة ، وصناعة ، وثقافة عالية لتكون سبباً في أزدهار ألمدينة ورخائها ، وقد عاد ذلك بالخير على حكام المدينة وأهلها ، اذ عاشوا في بحبوحة ، ونعموا بثروات كبيرة ، وشهد المؤرخون المعاصرون للحقبة التي نبحث فيها بعظيم ثروة طرابلس واهلها فهذا ابن الاثير(٧٢) ، يقول : ((... وكانت طرابلس من أعظم بلاد الاسلام ، واكثرهم تجملاً وثروة .))

اما ابن تغري بردي (٧٣) فيقول عن أهلها أنهم : ((كانوا من اكثر أهل البلاد أموالأوتجارة)). وما يؤكدذلك أنه وعلى الرغم من تعرضها لحصار مستمر من الصليبين في العشر الاخيرمن القرن الخامس الهجري ومطلع السادس الهجري ، فقد ظلت صامدة بفضل ثروتها التي ادهشت الصليبين (٧٤) .

الهوامش والحواشي

١- فيليب حتي، لبنان في التاريخ ، ص[١٨٨] .

٢- Bovier –Lapierre Gauthier , Jouget: legypte, dans precis de phistoired Egypte , t, I, le caire, 1932,p.124.

٣- فيليب حتي ،تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ج١ ، ص[٢٤١-٢٤٨] .

٤- جواد بولس ، تاريخ لبنان ، ص[١١٧] .

٥- عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي ، ص[٢٥] .

٦- اليعقوبي ، البلدان ، ص[٣٣٧] .

٧- صالحبن بن يحى ، تاريخ بيروت ، ص[١٤٥] .

٨- البلاذري ، فتوح البلدان ، ص[١٥١] ؛ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج٤، ص[٣٤١] ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج٣ ، ص[٢٤٧] ؛ فتحي عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، ج١، ص[٣٦١] .

٩- البلاذري ، المصدر السابق ص[١٥١] ؛ ابن الاثير ، المصدر السابق ، ج٤ ، ص[٣٤١] .

١٠- البلاذري ، المصدر نفسه ، ص[٢٧٩] ؛ الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٨ ، ص[١٢٩] .

١١- البلاذري ، المصدر نفسه ن ص[١٩٣] .

١٢- الطبري ، المصدر السابق ، ج٧، ص[٥٠٩] ؛ ابن الاثير ، المصدرالسابق ،ج٥ ، ص[٥٠٠] .

١٣- ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج١٢ ، ص[٢٠١] .

١٤- النويري ، نهاية الادب ،ج٦،ص[٤٥٣] .

١٥- ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص[٢٠] .

١٦- ابن خلكان ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص[٢٠١] .

١٧- المصدر نفسه ، ج٢ ، ص[٢٠١] .

١٨- ابن شداد ، الاعلاق، ص[١٠٧] ؛ ابن الفرات ، تاريخ ، ج٨ ، ص[٧٧] .

١٩- المقريزي ، اتعاظ الصنفا ، ص[٢٦٦] .

٢٠- ابن شداد ، المصدر السابق ، ص[١٠٧] ؛ المقريزي ، المصدر السابق ، ص[٢٦٦] .

٢١- ابن القلانسي ، المصدر السابق ، ص[٢٠] .

٢٢- آغا بزرك الطهراني ، طبقات أعلام الشيقة ، ص[١٣٢] .

٢٣- محمد عبدالله عنان ، الحاكم بامر الله واسرار الدعوة الفاطمية ، ص[١٥٣] .

٢٤- عبد المنعم ماجد ، الحاكم بامر الله الخليفة المفترى عليه ، ص[٢٤١] .

٢٥- ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج٥ ، ص[٧٩] .

٢٦- يوسف الدبس ، تاريخ سورية ، ج٣ ، ص[٤٥٧] .

٢٧- ابن شداد ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص٩٦ .
٢٨- سهيل زكار ، مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ، ص١٥٤ ؛ مختارات من كتابات المؤرخين العرب ، ص٢٣٣ .
٢٩- المصدر نفسه .
٣٠- ابن الاثير ، المصدر السابق ، ج١٠ ، ص٦٠ .
٣١- سهيل زكار ، مدخل ، ص١٥٥ .
٣٢- ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢ ، ص٣٥ .
٣٣- قال سبط ابن الجوزي : القاضي امين الدولة الحاكم على طرابلس والمتولي عليها ، كان عظيم الصدقة مثير المراعاة للعلويين تفرد بذلك في زمانه ولم يدانيه احد من أقرانه وقال ابن شداد انه : من اعقل الناس واسدهم رأياً. وقال ابن الفرات : وكان ابن عمار هذا رجلاً عاقلاً فقيهاً سديد الرأي . وقد رثاه الشاعر ابن حيوس ،في ديوانه بقصيدة مطلعها :

زد بالعزاء الهم عن طلباته   لاتسخطن الله في مرضاته

سبط ابن الجوزي ، ذيل مرأة الزمان ، ق٢ ، ص١٣٨ ؛ ابن شداد ، الاعلاف ، ج٢ ، ص١٠٧ ؛ ابن الفرات ، تاريخ ،ج٨ ، ص٧٧ ؛ ديوان بن حيوس ،ج١ ، ص١٣٢ .
٣٤- ابن ميسر ، أخبار مصر ، ج٢ ، ص١٣ ؛ ابن القلانسي ، المصدر السابق ، ص٨٥-٩٢ .
٣٥- سبط ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ج١٢ ، ص١٣٨ ؛ ابن شداد ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص١٠٧ ؛ ابن الفرات ، المصدر السابق ، ج٨ ، ص٧٧ .
٣٦- الصفدي ، امراء دمشق في الاسلام ، ص٢٨ .
٣٧- عبد المنعم ماجد ، الامام المستنصر بالله الفاطمي ، ص٧٣ .
٣٨- ابو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج٢ ، ص١٩٨ .
٣٩- فيليب حتي ، لبنان في التاريخ ، ص٤١٤ .
٤٠- ينظر Brucekonde Tripoli of Lebanon-p-206.
٤١- Lacomte fe Tripoli sous La Dynastie Toulousaine – Jean Richard .(1102- 1187) paris , 1945,p.324.
٤٢- وصف الرحالة الفارسي ناصر خسرو سنة ٤٤٣هـ/ ١٠٥١م طرابلس بقوله : وحول المدينة المزراع والبساتين وكثير من قصب السكر وأشجار النارنج والموز والليمون والتمر ، وكان عسل السكر يجمع حينذاك ثم وصف المدينة وذكر معالمها في العصر الفاطمي فقال : ومدينة طرابلس مشيدة بحيث تكون ثلاثة من جوانبها مطلة على البحر فاذا ماج علت أمواجه السور ، أما الجانب المطل على اليابس فيه خندق عظيم ، وعليه باب حديدي محكم ، وفي الجانب الشرقي من المدينة قلعة من الحجر المصقول عليها شرفات ومقاتلات من الحجر نفسه ... وقد رأيت في بلاد العجم .....سفر نامة ، ص١٣ .

٤٣- دائرة المعارف الاسلامية ، مادة بني عمار ، ص٣٥٣ ؛ محمد علي مكي ، لبنان من الفتح العربي الى الفتح العثماني ، ص١٠٠ .
٤٤- حتي ، لبنان ، ص٤١٤ ؛ سميح الزين ، تاريخ ، ص٦٩ .
٤٥- شيخ الربوة ، نخبة الدهر ، ص٢٠٧ ؛ الادريسي ، نزهة المشتاق في أختراق الافاق ، ص١٧ .
٤٦- ابن الاثير ، المصدر السابق ، ج.١ ، ص٤١٢ .
٤٧- ابن العديم ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص٣٥ .
٤٨- ابن الاثير ، المصدر السابق ، ج.١ ، ص٤١٠ ؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا بذكر الائمة الخلفا، ص٢٦٦ ؛ بطرس البستاني ، دائرة معارف البستاني ، مادة طرابلس الشام ، ج١١ ، ص٢٤١ .
٤٩- القفطي ، انباه الرواة ، ج١ ، ص٥٠ ؛ عمر عبد السلام تدمري ، الحياة الثقافية في طرابلس الشام ، ص٢٢ .
٥٠- تدمري ، المصدر السابق ، ص٢٢ .
٥١- تاريخ الحروب الصليبية ، ج١ ، ص١٨٣ ؛ مكسيمون مونرود ، تاريخ الحروب المقدسة في الشرق ، ص٢٥٣ .
٥٢- ابن الفوطي ، تاريخ علماء الاندلس ، ج١ ، ص٣٦٣ .
٥٣- ابن عساكر ، تهذيب التاريخ الكبير ، ج٢ ، ص٣٣١ .
٥٤- كان أمين الدولة يرسل المراسلات الى أقطار البلاد ويبذل الاثمان الباهضة ، ويجلب وقفاً. واقتفى كل من جلال الملك ثم فخر الملك أثارة ، فقام جلال الملك بتجديد دارالعلم سنة ٤٧٢ هـ . ينظر ابن خلدون ، العبر، ج٥ ، ص٨٦٥ .
٥٥- تذكر مصادرنا التاريخية ان امين الدولة بن عمارقد أقام دار علم جمع في مكتبتها مايزيد على مئة الف كتاب وقفاً . وكان هووفقيهاً من فقهاء الشيعة ، وكاتباً مجيداً ألف كثير من الكتب النفسية وقد ساهم مصنع الورق القائم في المدينة في اثراء المكتبات بما تحتاجه من كميات الورق الوفيرة ، فكان لذلك أثره علـى حركة التأليف والكتابة والترجمة والنسخ التي نشطت في طرابلس خلال هذه الفترة ، فكثر فيها الوراقون والنساخة والكتّاب والمؤلفون والمجلدون . بنظر ، ابن شراد ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص١٠٧ ؛ابن الفرات، المصدر السابق ، ج٨ ، ص٧٧ .
٥٦- ابن الاثير ، المصدر السابق ، ج.١ ، ص٢٠٢ ؛ عماد الدين الاصفهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق، ص٦٥ .
٥٧- ابن الاثير ، المصدر نفسه ، ج.١ ، ص٢٠٢ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ، ج١ ، ص٢١-٢٢ .

٥٨- بعّد ميناء طرابلس من أهم الموانىء التجارية في الشام خلال تلك الحقبة وهو المنفذ البحري الرئيسي لأقاليم الشام ، فمن طريقة تمت عمليات التصدير والاستيراد ، وبواسطته تنتقل منتجات الشام والشرق الى بلاد الروم – اوربا – ويستقبل السفن التجارية القادمة من كل الجهات لتفرغ حمولتها فيه ، ومنه تحمل لتوزع في أنحاء البلاد الشامية وغيرها من بلاد الشرق ، فطرابلس بهذا تمثل همزة الربط بين الشرق والغرب ، وملتقى للقوافل التجارية ، برية كانت ام بحرية . ينظر : ارشيبا لدلويس ، القوى البحرية والتجارية ، ص٣٢٨

المصادر والمراجع

١- بن الاثير ، ابو الحسن بن ابي مكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن الواحد الشيباني (٣٦٠هـ) ، الكامل في التاريخ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٦م .
٢- الادريسي ، الشريف محمد بن العزيز ، نزهة المشتاق في اختراق الافاق ، نشر جوانيس جليد مميتر ، بيروت ١٨٨٥ م .
٣- ارشيبا لدلويس ، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، ترجمة * احمد محمد عيسى ، القاهرة ، ١٩٦٠ م .
٤- الاصفهاني ، عماد الدين محمد بن محمد بن حامد (ت ٥٩٧ هـ) ، البرق الشامي ، تحقيق صالح حسين ، الاردن ، ١٩٨٧ م .
٥- البابانى البغدادي ، ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون ، اسطنبول ، ١٩٤٥ .
٦- البلاذري ، ابو العباس احمد بن جابر ، (ت ٢٧٩ هـ) ٠ فتوح البلدان ، تحقيق عبد الله انيس الطباع ، مؤسسة المعارف ، بيروت ، ١٩٨٧ م .
٧- ابن تغري بردي ، ابو المحاسن جمال الدين يوسف (ت ٨٧٤ هـ) ، النجوم الزاهرة في اخبار مصر والقاهرة ، القاهرة ، ١٩٣٥ .

٨ـ ابن الجوزي ، عبد الرحمن بن محمد بن علي (ت ٥٩٧ هـ) ، المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، الدار الوطنية ، بغداد ، ١٩٩٠ م .
٩ـ جواد بولس ، تاريخ لبنان ، بيروت ، ١٩٧٢ م .
١٠ـ جلانفيل داوني ، انطاكية القديمة ، ترجمة د. ابراهيم نصحي القاهرة ، ١٩٦٧ .
١١ـ بن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ، (٨٠٨ هـ) العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر ، مؤسسة الاعلي للمطبوعات ، بيروت ١٩٧١.
١٢ـ ابن خلكان ، ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر ، (٦٨١هـ) ، وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، تحقيق محمد محي الدين ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٩٤٨م .
١٣ـ ابن خياط ، احمد بن محمد بن علي ، (ت٥١٧هـ) ، ديوان بن خياط ، تحقيق خليل مردم بك ، طبع المجمع العلي بدمشق ، ١٩٥٨م .
١٤ـ الذهبي ، ابو عبد الله محمد بن احمد بن عثمان (٧٤٨هـ) ، سير اعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الارنؤوطي وحسين الاسد ، تقديم بشار عواد معروف ، مطبعة الرسالة ،١٩٨١ م .
١٥ـ ستيفن رنسمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة سيد الباز العريني ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٩ م .
١٦ـ سبط ابن الجوزي ، شمس الدين ابي المظفر ، (ت ٦٥٤هـ) ، مرأة الزمان في تاريخ الاعيان ، حيدر اياد ، ١٩٥١ م .
١٧ـ سهيل زكار ، مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ، بيروت ، ١٩٧٣م .
١٨ـ ابن شداد ، عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم ، (ت٦٨٤هـ) ، الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة ، القسم الاول والثاني ، تحقيق ، يحيى طبارة ، دمشق ، ١٩٧٨ م . ج ٢ ، تحقيق ، سامي الدهان ، دمشق ، ١٩٥٦ م .
١٩ـ الصفدي ، صلاح الدين بن ايبك ، (ت٧٤٦هـ) امراء دمشق في الاسلام ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، طبعة المجمع العلي العربي ، دمشق ، ١٩٥٥ م .
٢٠ـ صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، نشر لويس شيخو ، دار الشرق ، بيروت ، ١٩٨٦ م .
٢١ـ الطبري ، محمد بن جرير (ت٣١٠هـ) ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، القاهرة ، ١٩٦٠ م .
٢٢ـ الطهراني ، اغايزرك ، طبقات اعلام الشيعة ، تحقيق علي تقي منزولي ، بيروت ١٩٧١م .
٢٣ـ عبد المنعم ماجد ، الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه ، القاهرة ، ١٩٥٩م .

٢٤ـ ابن العريم ، ابو القاسم عمر بن احمد بن هبة الله ، (ت ٦٦٠هـ) ، زبدة الحلب في تاريخ حلب ، تحقيق سامي الدهان ، بيروت ، ١٩٦٨ م .
٢٥ـ ابن عساكر ، علي بن الحسن بن هبة الله ، (ت٥٧١هـ) ، تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق / صلاح الدين المنجد ، مطبعة العلمي العربي ، دمشق ، ١٩٤٥ م .
٢٦ـ عمر عبد السلام التدمري ، تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور ، طبع دار البلاد ، لبنان ، ١٩٧٨ م . ـ الحياة الثقافية في طرابلس الشام ، مؤسسةدار فلسطين ، بيروت ، ١٩٧٢ م .
٢٧ ـ ابن الفوطي ، كمال الدين ابو الفضل بن احمد الشيباني ، (ت ٧٢٣ هـ) ، تلخيص معجم الاداب في الالقاب ، تحقيق د. مصطفى جواد ، دمشق ، ١٩٦٢ م .
٢٨ـ ابن الفرضي ، ابو الوليد عبد الله بن محمد الازدي ، تاريخ علماء الاندلس ، تحقيق ، دون فرنشكوكوديره ، مدريد ، ١٨٩١ م .
٢٩ـ ابو الفدا ، عماد الدين اسماعيل (ت ٧٣٢ هـ) ، المختصر في اخبار البشر ، دار المعرفة للطباعة بيروت .
٣٠ـ ابن الفرات ، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧ هـ) ، تاريخ ابن الفرات ، تحقيق د. قسطنطين زريق ، المطبعة الامريكية ، بيروت ، ١٩٤٢م .
٣١ـ فتحي عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية (بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري) القاهرة / ١٩٦٦ م .
٣٢ـ فيليب حتي ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ترجمة جورج حداد ، بيروت ، ١٩٥٨م . تاريخ لبنان ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٢ م .
٣٣ـ القفطي ، جمال الدين ابو الحسن علي بن يوسف (ت٦٤٦هـ) ، ابناه الرواه علي انباه الرواه على انباه النحاه ، طبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٥٠م .
٣٤ـ ابن القلانسي ، ابو يعلي حمزة بن اسد بن علي بن محمد (ت ٥٥٥هـ) ، ذيل تاريخ دمشق ، طبع الاباء اليسوعيين ، بيروت ، ١٩٠٨ م .
٣٥ـ ابن كثير ، ابو الفداء الحافظ الدمشقي (ت٧٧٤ هـ) ، البداية والنهاية ، تحقيق د. احمد بو ملحم واخرون ، طبع دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٧م .
٣٦ـ محمد عبد الله عنان ، الحاكم بأمر الله واسرار الدعوة الفاطمية،القاهرة، ١٩٥٩ م .
٣٧ـ محمد علي مكي ، لبنان من الفتح العربي الى الفتح العثماني ، بيروت، ١٩٧٧ م .
٣٨ـ المقدسي ، اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفا ، طبعة دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٤٨ م .
٣٩ـ مكسيمون مونرو ، تاريخ الحروب المقدسية في الشرق المدعوة حرب الصليب ، ترجمة مكسيوس مظلوم ، القدس ، ١٨٦٥ م .

٤٠ـ ابن ميسر ، محمد بن علي بن يوسف (ت ٦٧٧ هـ) ، تاريخ مصر ، تحقيق هنرلاي ماسية ، القاهرة ، ١٩١٩ م .
٤١ـ ناصر خسرو (ت٤٥٣هـ) ، سفرنامة ، رحلة ناصر خسرو الى لبنان وفلسطين والجزيرة العربية في القرن الخامس الهجري نقله الى العربية د. يحيى الخشاب ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ١٩٧٠ م .
٤٢ـ النويري ، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣ هـ) نهاية الارب في فنون الادب ، طبع دار الكتب ، القاهرة .
٤٣ـ ابن واصل جمال الدين محمد بن سالم (ت٦٩٧هـ) ، مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ، تحقيق جمال الدين الشيال ، دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٢ م .
٤٤ـ اليعقوبي ، احمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب ، ت بعد سنة(٢٩٢ هـ) ، كتاب البلدان معه كتاب الاعلاق النفسية لابن رستة ، ليدن ، ١٨٩١ م .
٤٥ـ يوسف الدبس ، تاريخ سورية ، بيروت ، ١٩٠٠ م .